الإنسانية عدد 45 جوان 2016 ،المجلد أ ص.ص 137- 153

المعرفــة الخـلفيـــة سلطتها في تلقي الخطاب وتوجيه الدلالة

كريم خلدون
قسم اللغة العربية
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

ملخص:

يعالج هذا المقال بنية إشكالية معقدة , تتناول شبكة العلاقات المؤسسة للمعرفة الخلفية باعتبارها بناء مخططا ذهنيا و آلية فعالة في مقاربة الظواهر النصية المختلفة , إذ تستمد طاقاتها التحليلية من نوعية مكونات بنيتها التكوينية, واضعة في عين الاعتبار دور المتلقي في تفعيل آلية المعرفة الخلفية بالانتقال بها من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل ,كل ذلك قصد تفكيك الخطاب /النص و إثارة ذاكرته و تأطير حفرياته , انطلاقا من كون الفهم عملية بنائية , تحتل المعرفة الخلفية فيها موقعية مفصلية و حضورية مؤسسية غير قابلة للتجاوز.

الكلمات المفتاحية :لمعرفــة الخـلفيـــة ; تلقي الخطاب ; توجيه الدلالة

Abstract:

This article attempts to treat the problematic complex structure, interested, in network relationships founder of previous knowledge by considering it as a mentally planned structure and an efficient mechanism in the approach to various phenomena of scripts, as it draws his analytical energies in the quality of its structural components , taking into account the role of the recipient in the activation of previous knowledge mechanism, to ensure that it exists by its action, not by force of existence, all this in order to dismantling the speech / text and stir his memory , framing his remains. Proceeding from the fact that the process of comprehension is a constructive operation where previous knowledge occupies an articular position, and a inescapable presence.

مقدّمة:

إذا كانت مناهج التفكير اللغوي القديمة و الحديثة في تعاطيها مع النص المقدس أو المدنس , أن تتجاوز نفسها , كما هي مطالبة أن تعيد قراءة ما تنتجه باستمرار (1), فإن من أهم ضرورات تفعيل هذا الطرح هو مقاربة آلية من أهم الآليات النصية و استكشاف عن قرب و محاولة التعرف على دورها في تحقيق استمرارية النص من عدمه

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر2016

من هنا فإن هذه الورقة تعالج آلية من آليات الانسجام النصي التي تمل على تفعيل شبكة العلاقات التي تربط معاني الوحدات اللغوية في النص , هذه الآلية تتمثل في : المعرفة الخلفية , إذ تتأسس انطلاقا من كون (المستمع/ القارئ حين يواجه خطابا ما لا يواجهه و هو خاوي الوفاض و إنما يستعين بتجاربه السابقة , بمعنى أنه لا يواجهه و هو خالي الذهن)[2] , و إنما يستعين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بما تراكم عنده من معارف قبلية تمكنه من التعاطي مع الخطاب / النص بفاعلية معتبرة , تجعله (يختار من المخزون الهائل من المعلومات ما يلائم....)[3] طبيعة النص و مقاصده ....و لهذا تعتبر آلية المعرفة القبلية من أهم المعايير الملحوظة على مستوى تحقيق التماسك النصي و استمراريته , و العاملة على وسم أي خطاب/ النص مقارب بسيمة النصية ,و من ثمة يتجسد التماسك الكلي على المستوى البنية العميقة /الدلالية , و البنية السطحية/اللغوية.ذلك كله لا يتحقق إلا بتفاعل آلية المعرفة الخلفية مع باقي الآليات الأخرى مثل البنية الكلية و التأويل المحلي و السياق...

ما أجمل ذكره – فيما تقدم ـ يجعل الدارس مطالبا بتذليله و تحليله و الوقوف على مكوناته البنيوية و الابستمولوجية وفق منهجية منظمة هدفها الحقيقة العلمية ليس غير . دون إغفال حقيقة إن التماسك النصي لا يتحقق على مستوى الجمل و النصوص المنجزة فحسب, بل ينبغي أن نبحث عن التماسك بين النصوص و ما يحيط بها ,وهذا يقتضي البحث في العلاقة بين النص و المعرفة الخلفية.

ـ <u>ما هي المعرفة ؟</u>

إنه منذ خلق الإنسان على هذه الأرض ظهر معه مفهوم المعرفة , و من ثمة بات مرتبطا ارتباطا عضويا وثيقا بالوجود الإنساني (و سبب ذلك بسيط و واضح و هو أن الإنسان لكي يحافظ على حياته و يجنب نفسه التهلكة و المخاطر , كان لابد أن يسعى إلى معرفة الأشياء و الكائنات من حوله معرفة تمكنه من التواصل معه ,و الإفادة منها في تحقيق ما ينفع, و هكذا وضع الإنسان نفسه في مقابل الأشياء و أصبح هو الذات العارفة و هي موضوع المعرفة)[4] .هذا إنما يعني أن الإنسان ميال بطبعه إلى الاستطلاع و البحث بهدف التعرف على ما يحيط به من ظواهر و فهم كنهها , إلى جانب سعيه إلى فهم ذاته و طبيعته البشرية . حيث أن تاريخ المعرفة الإنسانية يضرب بجذوره في البدايات الأولى للوجود الإنساني .و لكن , لعلنا لا نحتاج لأن نشغل أنفسنا بالمواقع الجدلية الفلسفية المختلفة و تصورات سدنتها المتباينة لمسألة الاتجاهات و المستويات بحث يمكن الحصول عليها من مصادر كثيرة متنوعة دون عناء أو تكاليف باهظة , و قد أصبحت المعرفة و الإبداع من أهم العوامل المؤثرة و المحددة لقيام ما يطلق عليه اسم (مجتمع المعرفة) التي تعمل الكثير من العوامل على تأسيسه , ومنها المعارف الخلفية (ذلك الرصيد الذي يخضع لاختبار و بات مشتركا بين أعضاء جماعة ..و يكتسبه المبتدئ من خلال التدريب باعتباره جانبا من عملية إعداده لوضعية الجماعة)[8] الذي لا يقنع باستخدام المعلومات لفهم واقع الحياة و أحداثها و تفاعلاتها و الاستفادة منها في توجيه مختلف أنماط الأنشطة و بخاصة في المجال الاقتصادي المعرفي,و إنما يعمل بالإضافة إلى ذلك على إنتاج المعرفة و تسويقها بحيث تصبح مصدرا اقتصاديا رئيسيا يحمل في ثناياه بذور منطق العرض و الطلب بالرؤية الحداثية النابعة من خلال التحولات السريعة في بنية المنظومات الحياتية المختلفة , و على الرغم من كل ذلك فقد وجدنا (نيتشه) في الكثير من طروحاته المعرفية ينبه إلى أن (.. عالم المفاهيم و الرموز لا ينجلي كليا ليمنحنا حضوره الوضاء في تمام الشفافية و الوضوح بل إن المسافة الكبيرة بين ما تظهره الرموز و ما تحجبه , بين ما تومئ إليه و ما تستره,..)[9] و ذلك عائد أساسا إلى كون العلامات اللغوية على اختلاف تنوعها و انتماءاتها شديدة الترابط بالحياة الإنسانية و الفضاءات المعرفة و التداخل التفاعلي في إطار جميع المظاهر الاجتماعية بل هي قيمة حضارية و ابستمولوجيا , تفترض في (عالم النص أن يكون مكونا من أفكار و علامات , و تعرف هذه الأفكار و العلامات في جملتها بأنها صور معرفية أو محتوى معرفي ,يمكن أن يستعاد أو ينشط في الذهن في وحدة أو مناسبة أو علاقات تمثل اتصالا بين الأفكار التي تظهر معا في عالم نص ما)[10].

- مفهـوم المعرفـة ؟

لم يرد لفظ (المعرفة) في القرآن الكريم ,إلا أنه قد ظهرت له في ثنايا بعض الآيات اشتقاقات كثيرة , فقد جاء بصيغة الماضي في قوله تعالى (ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) [11] , كما جاء بصيغة الفعل المضارع في وله تعالى (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ..) [12] . كما وردت في القرآن صيغة عرف , بمعنى : بين وأعلم في مثل قوله تعالى (و إذ أصر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به و أظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض) [13] و صيغة اعترف بمعنى : أقر في قوله تعالى (و آخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم)[14] .. وعليه فإن (المعرفة في القرآن إذا جاءت فعلا صادرا من الإنسان تعني : إدراك لشيء بتفكر و تدبر لأثره) [15] .

وإذا كانت المعرفة – عموما – (إدراك الشيء على ما هو عليه , هي مسبوقة بهل , بخلال العلم , لذلك يسمى الحق تعالى بالعالم دون العارف) [16] , فهي من الرؤية اللغوية تعود إلى العين والراء و الفاء أصلان صحيحان , يدل أحدهما على تتابع الشيء متصلا بعضه ببعض ,, و الآخر : على السكون و الطمأنينة , فالأول : العرف عرف الفرس , ويسمي بذلك لتتابع الشعر الشعر عليه , و يقال : جاءت القطا عرفا عرفا , أي بعضها خلف بعض .. و الأصل الآخر المعرفة و العرفان , تقال عرف فلان فلنا عرفا و معرفة , وهذا أمر معروف وهذا يدل على من سيكون إليه لأنه من أنكر شيئا توحش منه ونبا عنه ..)[17] وفي المعجم الوجيز : (عرف الشيء : أدركه بحاسة من حواسه ..) [18] , كما أن (عرفه الأمر : أعلمه إياه , و عرفه بيته : أعلمه مكانه وعرفه به : وسمه)[19] . أما جميل صليبا فيقول (عرف الشيء أدركه بالحواس أو بغيرها . و المعرفة إدراك الأشياء و تصورها) [20] . و قال الراغب (.. المعرفة .. إدراك الشيء بتفكر و تدبر لأثره ..) [21] . وبهذا فإن كلمة المعرفة "" اسم مشتق من الفعل "" يعرف "" و تشير إلى القدرة على التمييز أو التلاؤم , وهي إذن كل ما هو معرف أو ما هو مفهوم . و معنى أن الرصيد المعرفي الناتج من حصيلة البحث العلمي و التفكير الفلسفي و الدراسات الميدانية و التطوير و المشروعات الإبتكارية وغيرها من الإنتاج الفكري للإنسان عبر الزمان تتمثل جميعها في الرصيد المعرفي أو الكم المعلوم القابل للاستخدام في أي مجال من المجالات وعبارات أخرى فإننا سنستخدم المعرفة على أساس كونها الأفكار أو الفهم الذي تبديه كينونة معينة (فرد أو مؤسسة أو مجتمع) و الذي يستخدم لاتخاذ سلوك فعال نحو تحقيق أهداف الكينونة .

ولابد لنا – في هذا المقام – من أن نميز بين " المعرفة " و " المعلومات " . فعلى الرغم من عدم وضوح الحدود الفاصلة بين المصطلحين ' إلا أنهما ليسا وجيهين لعملة واحدة . فالمعلومات هي ما ينتج من معالجة البيانات التي تتوالد في البيئة وهي تزيد مستولى المعرفة لمن يحصل عليها وهذا يعني أن المعرفة هي أعلى شأنا من المعلومات . فنحن نسعى للحصول على المعلومات لكي نعرفه (أو نزيد معارفنا) .

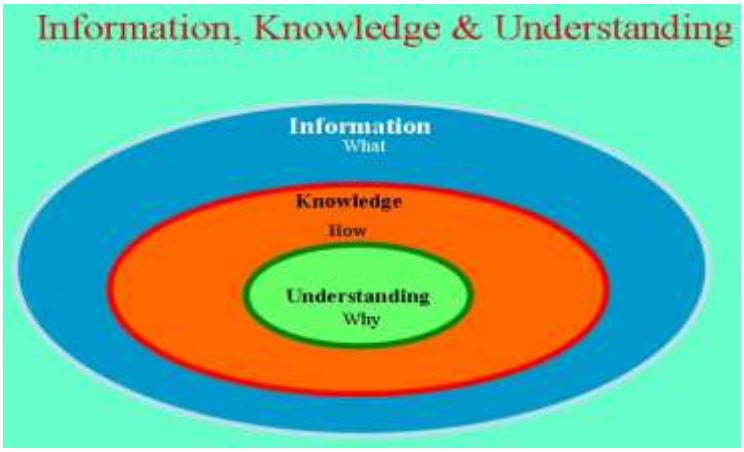

مما تقدم يدعو الدارسة إلى أن يميز بين نوعين من المعرفة :

1- **المعرفة المعلنة :** وهي كل ما يمكن التعبير عنه باللغة أشكال التعبير الرياضية كالمعادلات و الأدلة و الكتابات المختلفة , و هذا النوع من المعرفة قابل للانتقال بسهولة بين الأفراد بشكل معلن .

2- **المعرفة الكامنة (الذاتية في الإنسان) :** وهي المعتقدات و الاتجاهات و المدركات و القيم الذاتية النابعة من التجارب الشخصية للإنسان و التي تمثل جماع مفاهيمه و تجاربه و خبراته المختزنة داخله و التي لا يعبر عنها صراحة و لا يتم تناقلها بين الأفراد بشكل رسمي معلن .

و للمعرفة عند المفكرين القدماء و المحدثين عدة معان ولكن (.. جملة القول أن المعرفة تطلق على معنيين أساسيين الأول هو الفعل العقلي الذي يدرك الظواهر ذات الصفة الموضوعية , والثاني إطلاقها على نتيجة ذلك الفعل أي على حصول صورة الشيء في الذهن)[22] .

يتضح لنا أن المعرفة هي (ثمرة التقابل و الاتصال بين ذات مدركة و موضوع مدرك ..) [23] وهي كذلك (كيفية ذهنية توجد رابطة خاصة بيننا و بين الآخرين) [24] , بل هي (الحالة الذهنية التي تحصل لدينا بعد العلم بالشيء) [25].و لهذا يمكن اعتبارها الركيزة الأساسية للمتلقي/ القارئ الذي يوصف بالمثقف فهي الخليفة العلمية و التجريبية و التعليمية للوعي عند المثقف التي من خلالها يتم تحليل و توصيف الظواهر الخارجية أو الداخلية في إطار العلوم الإنسانية و العلوم التطبيقية (المادية) و العلم الفلسفة (الفكري) بحيث أن المعرفة هي إدراك الأمور المحسوسة و المعنوي التي يحدد بها للملتقى- القارئ اتجاهات و مرجعيته العلمية و الفكرية من خلال التعليم و التجربة و أدارك بواطن الشيء المعنوي و المادي و من ثم تحليلها و إعطاؤها الحلول الناجعة لها .

و يعود مفهوم المعرفة knowledge من الناحية اللغوية إلى الفعل عرف علم و/ أو أدرك فنقول عرفة (بكسر العين) و عرفانا , و معرفة الشيء علمه أو إدراكه بالحواس أو بغيرها . و بحسب الدكتور جميل صليبة في المعجم الفلسفي فإن القدماء قد ميزوا بين " المعرفة " من حيث هي (إدراك الجزئي) [26], (نقول عرفت الله وليس علمت الله) و " العلم " من حيث هو(إدراك كلي)[27] (إن الله عليم خبير) , أو بتعبير آخر , فإن مفهوم المعرفة يستخدم في التصورات , و مفهوم العلم في التصديقات

و تنقسم المعرفة إلى قسمين :

1_ المعرفة القبلية : وهي ترتكز على الإلهام و الغريزة و الفراسة

2_ المعرفة البعدية (التجريبية) : وهي ترتكز على الإحساس و التجارب و الممارسة , وبالتالي إلى الاستقراء و الاستنباط ومستلزماتهما المنهجية (المعرفة العلمية و المعرفة التجريبية ..

و تجرد الإشارات الى المعرفة العلمية التي تستند إلى مبدإ العليـة / السببية , و الحتميـة بمعنـى أن كل مايحدث , إنما يحدث بعلة , وأن نفس العلة لابد أن تنتج نفس المعلولات في حال تساوي كافة الشروط والظروف المحيطة بالعملية المعرفية .

و نقول أن الفعل العقلي و التفاعل القرائي هو الذي يدرك الظواهر (عمليـة انعكاس الظواهر في الوعي نتيجة ذلك الفعل , أي حصول صورة الشيء في الذهن, فالعملية المعرفية و الديناميكية التلقي إنما هي في الأساس عملية معقدة ذات منظومة محكمة , وهي تتعلق أساسا بطرفين اثنين هما : العارف / الملقي و المعروف / الخطاب – مثلا – المدرك و المدرك (بكسر الراء و فتحها) الوعي و الواقع , هذان الطرفان يمثلان وجهان لعمله واحده (.. إن تلقي النص ... فعل ملازم لظهور النص , وضمان الاستمرارية , لأن عملية الكتابة تستوجب حتما عملية القراءة و التلقي ..)[28] , ويخضعان لجدلية الواحدة و التمايز أي أن كلمنهما يؤثر في الآخر و يتأثر به في الوقت نفسه .

و لهذا فإن مفهوم الاصطلاح للمعرفة ينبجس عن جانب مهما من جوانب دلالاتها و أبعادها منه أن المعرفة تمثل حصيلة الامتزاج الخفي بين المعلومة و الخبرة و المدركات الحسية و القدرة على الحكم و أنها كذلك متميزة عن الكثير من المفاهيم لكونها تملك قابلية الجمع بين الكثير من القضايا و المفاهيم الكبرى – الله و الكون و الإنسان و غيرها (في منظومة واحدة هي النسق المعرفي)[29] . كل ذلك إذا يقودنا إلى أن ننظر إلى المعلومات على أنها وسيطة لاكتساب المعرفة ضمن وسائل عديدة كالحدس و التخمين و الممارسة الفعلية و الحكم بالسليقة ' بينما الفعل المعرفي / العقلي إنما هو(.. نشاط يتم بطرقة ما بواسطة أدواة هي المفاهيم , و داخل حقل معرفي معين قد يظل موضوع المعرفة هوهو , ولكن طريقة معالجته و الأدوات الذهنية التي تعتمدها هذه المعالجة و الإشكالية التي توجهها و الحقل المعرفي التي تتم داخله , كل ذلك قد يختلف ويغير ..)[30] .

ـ المعرفة الخلفيـة

نقطة البدء

فإذا كانت هذه المعرفة الخلفية (كل معرفة يعتمد عليها في الإدراك و العلم و الفهم سلفا,و هي لا تشكل بالضرورة مبادئ ثابتة و لا قواعد منضبطة , بل منها ما هو منضبط ثابت , كما منها ما هو غير منضبط و متغير , و إن البشر يتفاوتون حولها , فمنها المتفق عليه , و منها المختلف حوله)[31] بمعطياتها المباشرة أو غير المباشرة تمثل يشكل أو بآخر امتدادا للفعل التواصلي المعرفي الإنساني , و تراكمية مفاهيمية و ابستمولوجية , و تحركا إناسيا ثقافيا للتراث المعرفي الإنساني عبر السيرورة التاريخية تجاه العصر الحديث , إلا أنها , و إن اختلفت في الكم و النوع و العمق من (قارئ) إلى آخر من مجموعة إنسانية و ثقافية إلى أخرى و من مرحلة تاريخية إلى أخرى , فإن المهم أن المعرفة الخلفية بمعطياتها المباشرة و غير المباشرة تمثل و لا ريب مقاربة استراتيجية و منظور ابستمولوجي مفصلي بأدق مطالبه المنهجية و الموضوعية تقتضيه تراكمية الخبرة و استجابات التحديات الحياتية و المعرفية و المذهبية و الثقافية الداخلية و الخارجية فـ (الفكر البشري عن وعي أو عن غبر وعي يعمل طبقا لهذه القبليات)[32] ... و لهذا فالوعي التصوري لمسألة المعرفة الخلفية بمعطياتها المباشرة و غير المباشرة التي صاغته بشكل أو بآخر الحركات اللسانية و النقدية و نمته القدرات المضافة التي منحتها إياه مناهج البحث الحديث , جنبا إلى جنب مع العلوم الأخرى المساعدة أو الموصلة التي تعين على مزيد من الكشف و النضج من خلال البحث و الدراسة و التأليف في هذا الفرع أو ذاك , لأن من وظائف المعرفة القبلية أنه (يعتمد عليها في القهم سلفا, كما يعتمد عليها في كل معرفة تتعلق بإدراك الواقع الخارجي العام , و كذا كل علم تقني خاص بالعلوم الطبيعية و الإنسانية ..)[33] .

و لكن هذه المعرفة الخلفية بما تحويه من كم كبير من المعطيات المنوعة الشعورية و الا شعورية قد تنطوي على تناقضات متضاربة و توجهات متعاكسة ربما لبديهيات الطرح العلمي الحديث بسبب الجهل أو القناعة الخاطئة (فإذا كان لكائن حي قدرات يستطيع بها انجاز بعض المهمات بصورة جيدة فستقود هذه القدرات نفسها إلى فشله في مهمات أخرى .فإذا ما استطعنا معرفة القدرات التي لديه نستطيع أن نأتي ببعض المشكلات التي لن يكون باستطاعته حلها ,ذلك لأنها تقع خارج نطاق قدراته

)[34] و معارفه الخلفية ... مما يدعونا إلى القول أن محتويات المعرفة الخلفية ليس من الضروري أن تكون جيدة و عميقة ومقنعة ومنظمة ..دائما , فـ (فمجموع المفاهيم لا تخضع لشروط دقيقة جدا : لأن تاريخها ليس تاريخا متصلا يطبعه النظام و التقدم , ليس تشيدا لبنيان معين ..)[35]... بل إن فيها في مقابل هذا مساحات معرفية ومفاهيمية ليست بالهينة متمركزة في فضاء المعرفة الخلفية للقارئ , يعرف من خلالها أصحابها مبادئ و أولويات التفكير المنهجي و يمتلكون قدرات تحليلية و تركيبية مما تقتضيه هذه الأولويات (إن شكل الوضعية هذا , يحدد ..حقلا تنتشرفيه , أحيانا تماثلات شكلية , و موضوعات فكرية محورية واحدة , تعطيه طابع الاتصال و انتقال المفاهيم بين هذا الميدان و ذاك)[36] , الأمر الذي يجنح بالعديد من هؤلاء نحو نوع من الموضوعية العلمية التي تتضمن قدرا معتبرا من التصاميم الفكرية الرصينة و الهندسات المعرفية المحكمة التي تخدم التفاعل المعرفي الايجابي بين الخطاب / النص و المتلقي و التصورات العلمية و تسدد خطوات النتائج العلمية التي قد يصل إليها بين الفينة و الأخرى (إن بين ذات القارئ و النص المقروء مسافة لا يمكن اجتيازها إلا عبر قنطرة القبليات .فلولا هذه القبليات لكانت المسافة القائمة و البعد باقيا من غير اجتياز)[37] ...

و لمناقشة قضية المعرفة الخلفية (تسبق قراءة النص , سواء كانت المعرفة حسية أو عقلية أو غيرها)[38] و مدى فاعليتها لحظة مواجهتها للخطاب / النص للتعرف على مكوناتها المتنوعة و انسجامه بصفة خاصة , و للإجابة على أهم الإستفهامات التي تمثل محور الإشكاليات المطروحة في ثنايا الفقرات السالفة و منها : ما هي طبيعة العلاقة بين الخطاب / النص (الموضوع) و الملقي (الذات كل ؟هل فعل القراءة نشاط ينطلق من فراغ؟ماو الدور الذي تلعبه المعرفة القبلية و المعرفة عامة في حركية توزع مناطق النفوذ و الهيمنة مابين محور الخطاب / نص و محور المتلقي ؟ كيف يستطيع المتلقي أن ينفذ إلى أسرار الخطاب/نص الذي (يخضع إلى آليات من التفكير القائم على القبليات)[39] ليقف منها على منهاج نتائج معرفية كنسجامه و اتساقه و تماسكه مع محاولة (إبراز شروط انبثاق العبارات و قانون تواجدها مع عبارات أخرى و الشكل النوعي لنمط و جودها , و المبادىء التي تستمر وفقها , في البقاء , و تتغير و تندثر)[40] ؟...من كل ذلك ننطلق إلى مايلي :

<u>رسم بياني لبنية المعرفة الخلفية :</u>

يمكن أن يجمل الدراس المكونات الأساسية لبنية المعرفة الخلفية في رؤية شمولية من خلال هذا الرسم التوضيحي :

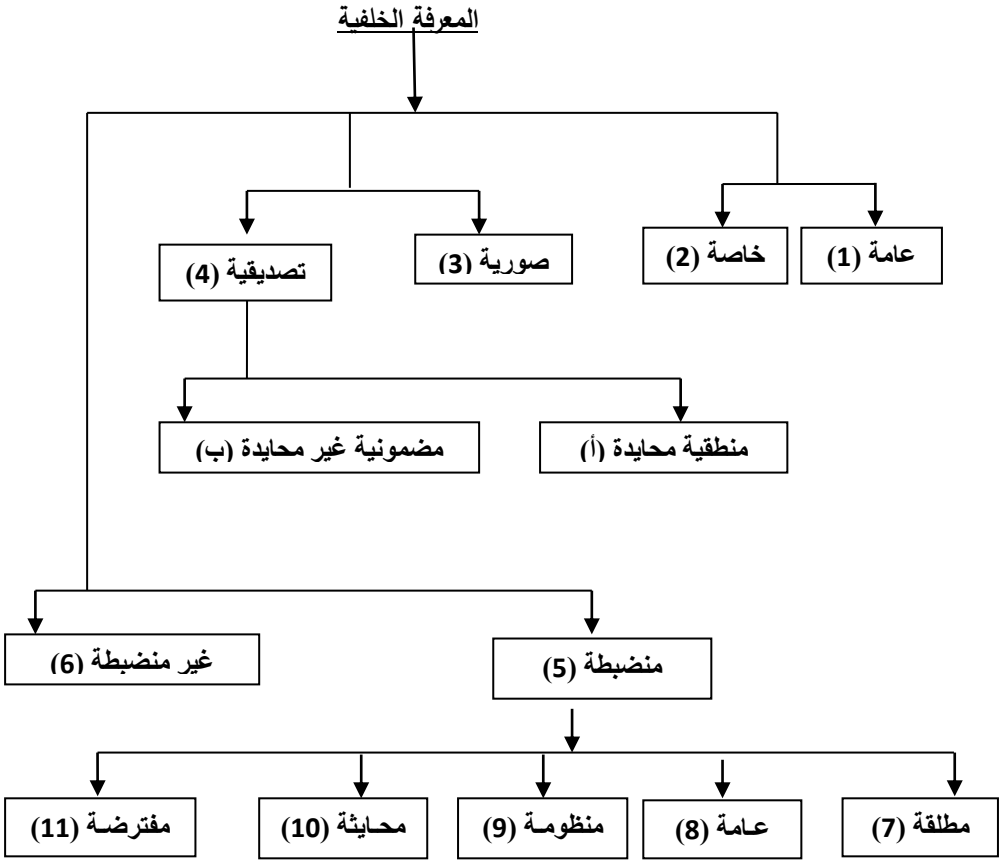

و نوضح مكونات هذا الرسم البياني في النقاط الموجزة الآتية :

1_ (وتكون هذه لاعتبارات عامة مشتركة .. فمثلا ..مبدأ السببية و عدم التناقض ..هذه القضايا واضحة للجميع , فإن بها يكون العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس و حس قول..ديكارت) .
2_ (فهي تعود إلى المنظومات الفكرية المتباينة , فمثلا للمنظومة الفلسفية اعتبارات ها القبلية التي تميزها عن الاعتبارات القبلية الخاصة بالمنظومة الكلامية وهكذا ..) [42].
3_ (بعضها يعبر عن قوالب صورية يتحقق من خلالها تصورنا للأشياء الحسية , فتظهر بالشكل الذي نتصورها , و كان من الممكن أن تظهر بشكل آخر لو أن هذا الجهاز طرأ عليه بعض التغير) [43].
4_(عبارة عن صور تنطوي على أحكام قبلية) [44].
أ_ منطقية محايدة : (تعبر عن جهاز مركب للإدراك بعضه موظف للكشف عن العالم الخارجي دون تحديد مسبق , إذ تتصف الممارسة الكشفية و المنطقية الحياد , كما هو الحال مع مبدأ الإستقراء و اعتباراته الاحتمالية فهو كاشف عن الأشياء دون تحديد مسبق لهذا يعد من المبادىء المنطقية) [45].
ب_ مضمونية محايدة : (بكونها كاشفة عن غيرها , لكنها ليست من المبادىء المنطقية , باعتبارها تحمل مضامين خاصة قبلية دون حياد , ومن أبرز نماذجها مبدأ السببية الهامة إذ أن هذا المبدأ يفارض

سببا و جود تضايف بين السبب و المسبب , فإذا ما رأينا مسببا فإن ذلك يدعو إلى الاعتقاد بأن له سببا ما ...)[46] .

5_ مضبطة (تخضع إلى قواعد واضحة) [47], و كذلك (تتأس عليها القراءة الجوانية)[48] .

6_ (ذاتية نفسية لما تتأثر به الذات بمختلف التأثيرات التكوينية و المكتسبة , أي تلك الناتجة عن العوامل النفسية و الفسيولوجي و الجينية و البيئية) [49], و عليها (تتشكل القراءة البرانية) [50] .وهي في الوقت نفسه لا تخضع لقواعد واضحة و متأثرة(بالظروف النفسية والخارجية) [51].

7- (هي معارف لا يخلو منها انسان قط , و بعضها يتوقف عليه النظام المعرفي برمته) [52].

8- (قبليات تغلب على معرف الناس , لكن دون أن يصل فيها الأمر إلى حد الإطلاق التام .) [53].

9- هي (عين ما يسلم به القارئ و الباحث بنظام أو منهج ما من الأنظمة و المناهج الفكرية , الأمر الذي يؤثر فيه على فهم النص و قراءته , سواء أكان ذلك من حيث التفسير)[54]. و هي (قبليات جاهزة و حاضرة في الذهن , و هي مستعدة للإسقاط)[55].

10- (و هي قبليات تحايث النص و تزامنه , باعتبارها ترتبط بواقع التنزيل ,فيهم النص على ضوء ما يفيده هذا الواقع , سيما عند الإحساس بعدم وجود تناسق في النسق الدلالي للنص ما لم يؤخذ هذا الواقع بعين الاعتبار)[56].

11- (و هي قبليات يفترضها الذهن ضمن سياقات معينة ,.. غير حاضرة في الذهن , بل يقوم هذا الأخير بإحضارها عند الإحساس بأن النسق الدلالي للنص لا يمكنه أن يكون منسقا أو تام الدلالة إلا بفرض بعض الافتراضات القبلية المناسبة)[57].

المعرفة الخلفية

إن حقيقة كون (المعرف منظمة بطرقة مضبوطة بعيدة عن العشوائية)[58] قد أغرت الكثير من المفكرين و الباحثين ,على اختلاف تخصصاتهم المعرفية و العلمية كعلم النفس المعرفي و الذكاء الاصطناعي .., مما جعلهم يحولون (تمثيل هذه المعرفة المخزونة في الذاكرة و بحثها بطريقة علمية تمكن من اكتشاف العمليات الذهنية التي يشغلها القارئ أثناء مواجهة نص من النصوص)[59]إلا أن النتائج التي توصلوا إليها و حققوها حتى الآن لا تزال محتشمة و غير نهائية.

و ينظر التفكير العلمي الحديث إلى الذاكرة على أنها (ليست هي كل الذات , و إنما هي جيوب في النفس .. تضم أشياء تقع هناك , في زمان مضى ,و لربما في مكان لم يعد هو الآخر كما كان)[60] .كما تشمل هذه الجيوب (أحكام العقل , و القيم التي تحكم الرؤية ، و ردود الفعل ..إلخ)[61]، إلا أن العملية التي يمارسها المتلقي/القارئ لتكوين طبقات جديدة من المعارف تعتمد على مخزون و هو ليس سوى المعارف القبلية التي كونها في أطواره السابقة ، و هذا ينفعنا في تصور سلسلة إنتاج المعرفة ، تلك السلسلة التي لا تقبل حلقاتها الانفراط ، لأنه (من غير المعقول أن نتصور أن أحدا في الدنيا جلس هكذا لا يعرف نفسه و لا يعرف الكون من حوله ؛ ليبدأ بحثا أو علاقة معرفية من اصفر)[62].

و عدم الابتداء من الصفر ،كما يبدو ، يشير إلى بعض ملامح الخطوات القادمة قد تحدد سلفا و تبعا لطبيعة المخزون المعرفي الذي جرت عملية تكوينه ،و هذا على وجه الدقة ما نعنيه بالمعرفة السابقة ، و يلقي بالضوء على اللحظات الأولى لتكوين المعرفة ، تلك اللحظات التي ستحدد على ضوئها معالم تطور الفعل القرائي بكل أبعاده الثقافية , و إن تسربا بسيطا من اللاموضوعية حين تخترق الأسس يتحول إلى شرخ هائل قد يؤدي بفعل التلقي إلى مهاوي التردي ، و يقوده و هو مغمض العينين الهاوية ،و لهذا فـ (الكاتب أو المتلقي يعتمد على كتابته أو تلقيه على معرفة سابقة مخزنة في الذاكرة ، يثير منها عند الضرورة بعض العناصر ليعبر بها عما يصادفه أو يفك بها شفرة ما يقرأ.كما أن تلك المعرفة الخلفية و ما تولده من أفق انتظار هي التي تساعد على بناء الأطر إلحاقا للنظير بالنظير . و إذا ما استعصى ذلك الإلحاق ، فإن القارئ يخلق إطارا جديدا في نطاق مفاهيم عمل مفهومية جديدة.)[63].

و هكذا فإن أي عملية تفكير ستعتمد على (المعرفة الخلفية) و إن هذه الأفكار السابقة ولدتها أ فكار أسبق منها ، و هكذا تتواصل عملية الانتقال من أفكار سابقة إلى أفكار أسبق منها ، هذا إنما يقود إلى القول أن (أي نص أو غيره لا يمكن أن يفهم نص أو غيره لا يمكن أن يفهم
نص أو غيره لا يمكن أن يفهم نص أو غيره لا يمكن أن يفهم ، و هذا النص السابق يرد إلى نص أسبق ، و هكذا إلى نقطة البداية)[64] وصولا إلى لحظات تكون الثقافة و نشوئها.
لكن من الضروري هنا الإشارة إلى فرق جزئي بين العقل و (المعرفة الخلفية) ، لأن الأول يتحدد بالمعالم الفعلية للثقافة، بينما الثانية / المعرفة الخلفية تحمل طابعا ديناميكيا يتابع النقلات الحادثة في هذه البنية , و التطورات التي تنجز من خلال عملية التراكم المعرفي ,و تفتح الأفق لكل حالات الاحتكاك و التفاعل، ما دام قادرا على الدخول كلبنة في البناء المعرفي لهذه الثقافة .
فالمعرفة الخلفية هي ذلك الجزء المسلم به من المرجعيات و الأسس ؛و لذلك فهي أهم ما فيها أنها الأداة التي تسمح بضم أي معرفة جديدة إلى هذه الأسس أو طرد سواها باعتبارها ليست صحيحة .
و لهذا فإن المعرفة هي التي تسبب نزاعات أو صراعات في مقاطع التضاد و التنافر كما أنها تقف وراء التعصب، و هي أيضا تتيح للأفكار الجديدة الانتماء إلى المنظومة بعد الحكم على صحتها سواء أكانت صحيحة فعلا أم أنها ليست كذلك.
و هكذا نلمس كيف يمكن للمعرفة الخلفية أن تؤثر تأثيرات سلبية عندما تكون غير موضوعية ، أو تأتي من وراء بعض ذاتيات الإنسان و عقده،لكنها مع ذلك فلها تأثيراتها الإيجابية التي لا يمكن إنكارها ، منها أنها شيء ضروري لأي علمية تفكير و لا يمكن لأي علية تفكير أن تكون منتجة ما لم تستند إلى(المعرفة الخلفية).
و أما عن أهم خلفيات و أبعاد بل أسرار كافة الصراعات و التعصب الذي يؤدي إلى انغلاق الفكر و الانسياق الوعي وراء مواقف غير محكمة المقدمات و بالتالي خاطئة النتائج ، هذا السر هو تحول ذاتيات الإنسان إلى جزء من المعرفة الخلفية ، فلعل هذه الفكرة المسبقة قبل أن تكون لها هذه الصفة تكون مجرد فكرة تجول في رأس بعض الموجهين ثم

تتحول إلى الآخرين ،ثم تتحول كذلك إلى أصل من أصول الثقافة ، ثم تغيب في(اللاشعور الثقافي) فتؤثر فيها ،دون أن يفطن أحد إلى تأثيرها خصوصا إذا كانت تنتمي إلى لحظة تأسيس الأمة ،و لحظات ولادة شخصيتها الحضارية و الثقافية.

المعرفة الخلفية و اللغة

لإلقاء بعض الأضواء الكاشفة على العلاقات القائمة بين طرفي معادلة هذا العنوان الفاعل (المعرفة الخلفية و اللغة)ننطلق من (التعريف التالي للعلاقة ، و هي أن كل علاقة تنتج بواسطة علاقة ، و معنى هذا أن هناك علاقة أولى تكون منطلقا لتواد عدة علاقات في صيرورة وسيرورة متوالية،و هذا يصح في جميع أنواع العلاقات التي تتوالد و تتناسل) [65] على أن تركيزنا هبا سيكون خاصا على العلاقات التي تهمنا و هي المعرفة الخلفية و اللغة.

ترتبط المعرفة القبلية باللغة ارتباطا وثيقا ، فالأفكار و المكونات الصورية مؤسسة لتفاعل المتلقي مع الخطاب/النص لا توجد بشكل مستقل عن فضاء اللغة ، و اللغة (جملة من رموز متواترة بين أفراد المجموعة البشرية التي تتحول بفعل الرابط اللغوي إلى مجموعة فكرية حضارية ، و هذه الرموز سواء أكانت ملهمة إلهاما أم منبثقة انبثاقا فإنها تمثل ضربا من التسليم الضمني بين مستعمليها ثم إنها تربط فيما بينها بقوانين ، و بفضل هذه القوانين تنصهر الرموز الجزئية في شبكة من القواعد المجسمة لبناء اللغة الكلية)[66]،من ثمة فهي الأداة التي تصنع من النسيج المتشابك المركب من المعرفة الخلفية و الأفكار تصورا للمجتمع اللساني واقعا ، ولهذا فإن ثقافة كل أمة بكل ما تحمله هذه الكلمة من أبعاد انطولوجية و ابستمولوجية و سيميائية و لسانية ...كامنة في أعماق تضاعيف لغتها ، و على هذا

الأساس فالهوية الوجودية لكل أمة هي نتاج المعاني و تفاعل مكونات المعرفة الخلفية التي يشيدها أفرادها عبر اللغة و السيرورة التاريخية . و ما من حضارة انسانية الا وصاحبتها يقظة و نهضة لغوية ، فكما أن اللغة تحمل الزخم المعرفي و تخزن التراكم الخبراتي الانساني فهي كذلك تصنع الفكر و الافكار التي تولد المعرفة ، و لهذا فاللغة (عنصر قار في العلم و المعرفة سواء في ذلك ما كان منها علما دقيقا أو معرفة نسبية أو تأملا مجردا . فباللغة نتحدث عن الاشياء ، و باللغة نتحدث عن اللغة ، بل اننا باللغة بعد هذا و ذاك نتحدث عن علاقة الفكر باللغة إذ هو يفكر من حيث هي تقول ما هو يقول)[67]

إن حدود اللغة التي ينتمي إليها صاحبها في حدود العلم الذي يعيش فيه ، و يمكن للمرء أن يضيف أن حدود اللغة الذاتية هي في حدود المعرفة المكتسبة، فهي حدود تشمل مبدع الخطاب/النص و متلقيه بل هي فرصتهما و تجربتهما في الحياة ، فاللغة (من حيث ظاهرة بشرية مطلقة)[68] تؤثر في كم المعرفة و كذلك في انجازات الإنسان و تحديد سقف طموحاته ، فإذا كانت لغة محلية ،فإن حدود معرفتها الخلفية و عالمها تنحصر ضمن مجتمعه المحلي ، و إذا كانت لغته متنوعة إضافة إلى لغته المحلية فإن حدود عالمه التصوري و الواقعي يتسع ليضم مجتمعات إنسانية كثيرة تتعدد بتعدد البلدان التي يتقن لغاتها ،و إذا أتقن الإنسان لغات عالمية فلا شك أن معرفته الخلفية و مكتسباته الفكرية تتسع لتشمل حدودا و مناطق أكثر ثراء و أعمق خبرة ليصبح عالمه بلا حدود و قدراته في الحصول على المعرفة بلا قيود .

و من المهم أن يؤدي التقدم النوعي في المعرفة الخلفية إلى التراكم الخبراتي تأثيره العميق في اللغة التي يفاعل بها متلقي الحطاب/ النص عالمه اللساني و مفاهيمه ف(الأفكار يتم تحليلها تكوينيا أي عندما تصاغ في مفاهيم و هو ما يعرف بالعمليات التركيبية) [69], ولكن الأهم من كل ذلك أن تسهم المعرفة الخلفية (ليس فقط من أجل التحدث بصوت عال ولكن من أجل التفكير العميق)[70] في إحداث التواصل النوعي تجاه اللغة حتى يكونا معا وحدة تصورية متميزة تسهم إلى حد بعيد في التعاطي مع الألوان اللغوية و الأنواع الكلامية و الأشكال الخطابية قصد الوقوف على طبيعة تماسكها ومظاهر انسجامها ..و هذا ما تحتاج إليه العملية التواصلية المكتوبة منها و الملفوظة انطلاقا من المعرفة التي لديها لإحداث التقدم في الفعل التواصلي .. و حتى يتم كل ذلك يمكن أن تستخدم المعرفة الخلفية كـ (نوع من المعارف أو درجة عالية منها بجانب المعرفة العقلية التي تستند إلى و وثوق الرياضيات , و بجانب المعرفة التجريبية التي تستند إلى واقعية الفيزياء ..)[71]لإحداث هذا التطور بعد استيعابها كحس , تماما كاستيعاب و استخدام حواس النظر و اللمس و الشم 'وفي هذا الاستيعاب تكمن إمكانيات التغيير في المنتجات الإبداعية و الخدمات التواصلية وأيضا في كل ماله علاقة بالفعل اللساني الإنساني .

إن محورية اللغة في منظومة المعرفة الخلفية التي يستنبطها متلقي الرسالة التواصلية نتيجة لتعاظم الدور الذي تلعبه اللغة في جميع العناصر الفرعية المكونة لمنظومة الثقافة في مجتمع المعرفة و التي تشمل الفكر و الإبداع و التربية و الإعلام و التراث و نظام القيم و المعتقدات ....إلخ .ولا أجد نظاما بل ومنهجا أوثق صلة بمنهج اللغة _ إن صح التعبير _ بفروع المعرفة على اختلاف أنواعها وتعدد طبيعياتها , فاللغة ترتبط بالعلوم الإنسانية و الطبيعية على حد سواء , و صاحب المعرفة الخلفية هو كائن متعلم مدى الحياة لا يقتصر اكتسابه للمعطيات المعرفية و المكتسبات الحياتية فيه على مرحلة حياتية دون أخرى , فتشربه المباشر و غير المباشر للمعرفة يمتد ليشمل احتكاكه بالآلات و النظم و المؤسسات بل و الخلايا و الفيروسات و قدرة هذا الكائن على التخزين الذاكري انطلاقا من كون (الذاكرة الإنسانية تحتوي على أنواع من المعارف المنظمة في شكل بنيات)[72] ، كل ذلك يرتكز أساسا على اللغة سواء كانت لغة طبيعية إنسانية أو لغة برمجية صناعية ، أو لغة جينية بيولوجيا .و كما يحتاج صاحب المعرفة الخلفية تواصلا أوسع نطاقا و أكثر تنوعا خاصة فيما يتعلق بالتواصل الإنساني

عن بعد أو الحوار بين الإنسان و الآلة ، الأمر الذي يحتاج إلى تجديد النظرة إلى مهارات التواصل الأساسية قراءة و كتابة و شفاهة و سماعا .

و إن علاقة اللغة بالمعرفة الخلفية باعتبار هذه الأخيرة (وقائع موجودة نؤكدها في أقوال . في الأقوال تظهر تعبيرات إشارية (أسماء أو علامات) تعود إلى موضوعات التجربة (مرجع) لكي نتمكن من أن حولها شيئا في تعينات إخبارية (قول)...)[73] تتضح من خلال عمليات إدارة المعرفة و هي تقارب خطابا/نصا ما إذ تعمد إلى النفاذ إلى مصادر المعرفة ، فتنقل الأفكار و المفاهيم و التصورات المخزونة في الذاكرة بعد استيعابها في غالب الأحيان ، لتوظيفها و تفعيلها مما تولد لنا من خلال هذه العملية المعقدة النتائج منتظرة و غير فمن منتظرة فمن(أجل أن أفهم الجملة : بطرس يأمر هانس ،يجب أن أكون قد خبرت في زمن ما كمشارك في تواصل ماذا يعني إعطاء الأمر أو تلقيه)[74] و على هذا الأساس فـ(الناص .. أو المبدع ..تتحكم فيه أطر نموذجية مثالية ، و قد يخرج عنها أو يخرقها ، و لكن قانوني المماثلة و المشابهة هما اللذان يسوغان ذلك الخروج و الخرق)[75] فعلاقة اللغة بالمعرفة الخلفية و مصادرها يرتبط بإمكانات متنوعة بسيطة و معقدة منها التواصل الاجتماعي و الثقافي في شتى مستوياته و استغلال تكنولوجيا المعلومات المتاحة بأقصى درجاتها لمواجهة مظاهر الإشكالات المعرفية الراهنة ،و بهذا تكون العلاقة قد التحقت (بالمعارف الكونية إذا لم تعد مقترنة بإطار مكاني دون آخر ، ولا بمجموعة لغوية دون أخرى ، و لا حتى بلسان ما دون الألسنة الآدمية الأخرى..)[76] و هذه الخاصية على الأقل تموضع هذه العلاقة العضوية بين اللغة و المعرفة الخلفية موضع المعرفة الدقيق .و أما علاقة اللغة بنقل المعرفة و استيعابها و من ثمة تخزينها يرتبط بعلاقة اللغة بالفكر و بدور اللغة في صناعة هذا الفكر و العكس صحيح أي بدور الفكر في صياغة هذه اللغة و دور اللغة في صياغته ،انطلاقا مما للغة من إمكانات توفرها لحفز الفكر و الإبداع على تجاوز القيود و العقبات التي تفرضها عليهما تحديات الحياة و المستجدات الفكرية، لأنه (ربما كان الناس يعرفون منذ زمن بعيد أن كل شيء يفكرون فيه فتفكيرهم فيه يمر من اللغة ،.. أن ما يحسون به و ما يشعرون هو أيضا يتجلى لهم من خلال اللغة .. لكن الذي لم يكن السابقون يدركونه و الذي لم يستقر في أذهان غير السابقين من الحاضرين و من المعاصرين و ربما من القادمين هو أن معرفة الأشياء أصبحت الآن تمر عبر معرفة اللغة)[77] .و لابد هنا من التركيز على عمق استيعاب المضمون و الاهتمام بنسق الدلالة اللغوية و عدم إهمال الجانب الوظيفي لاستخدامها ،فالسعي إلى اكتشاف أسرار اللغة (هو الذي يعيننا على اكتشاف أسرار الأشياء في الوجود: كل الأشياء و كل الوجود) [78] .

المعرفة الخلفية و التأويل .

يشكل التلقي و القراءة المعرفية مهما كان نوعها و حجمها ميزة الإنسان الأساسية التي يتكئ عليها في ممارسة الحياة و الحفاظ عليها دون بقية الموجودات و المكونات ؛فمنذ اللحظة التي ينشأ فيها الارتباط و التفاعل بين الإنسان و العالم و الأنا و الآخر و القارئ و الخطاب/ النص ... فإن المتلقي الواعي المتسم بالفاعلية و كذا المعرفة الخلفية و المكتسبات المعرفية كل ذلك يتخذ لنفسه موقعية في سيرورة الحياة و عوالمها المختلفة ، و يتعاطى مع النص من منظور كون معناه (هو مشترك بين ما يحمله النص من معنى ..و بين ما يضيفه ذهن القارئ من معنى ..)[79] ،و ما تراكم من المدركات و المعارف تعكس طبيعة تفاعله مع العالم ، كما تعكس أن(هذه المعارف بطبيعتها معارف كلية شاملة و نسقية ، بمعنى أنها مقبولة على حد سواء في كل مكان و زمان)[80] بالنسبة للفرد، و يسمى مقابله(ثقافة) بالنسبة للجماعة.

إن عملية التكون المعرفي وبناء المعرفة الخلفية سواء أكان ذلك على المستوى الفردي و الجماعي إنما هي أساسا عملية ديناميكية متواصلة لا تعرف التوقف ، تلاحق هدف الإنسان الرئيس .وسعيه للتفاعل مع الحياة بكل أبعادها و مستوياتها لإغنائها و ترسيخها ، ذلك الهدف الذي لا ينجز إلا عبر تواصل عملية التلقي الواعي وتعميقها ، لأن (المستمع/ القارئ حين يواجه خطابا ما لا يواجهه و هو خاوي الوفاض و إنما يستعين بتجاربه السابقة ، بمعنى أنه لا يواجهه و هو خالي الذهن ..)[81]، غير أن

هذه الفاعلية الإيجابية يمارسها الإنسان ستتأثر بأدوات تكوينها ، تلك الأدوات التي تمثل النافذة التي يطل منها المتلقي/ القارئ على العالم الخارجي ، و لذا فإن هذا الفعل المقارباتي سيكون ذا أثر مزدوج ، فهو من جهة عملية تعرف و إدراك للعالم ، لكنه من جهة أخرى عملية محددة بأطر و حدود القائم بها هو الإنسان ، فهنالك أثر إيجابي يترتب على التلقي الواعي نفسه ، كونه عملية إدراك و تعرف على العالم ، و أثر آخر سلبي ينشأ عن محدودية أدوات الإدراك ، كالحواس و طبيعة العقل الذي يرتبط بنوع الإنسان ، و تأسيسا على ما تقدم ذكره آنفا فإن معالجة المتلقي للخطاب/ النص (المعاين تعتمد ، من ضمن ما تعتمد على ما تراكم لديه من معارف سابقة تجمعت لديه كقارئ متمرس قادر على الاحتفاظ بالخطوط العريضة للنصوص التجارب السابقة له قراءتها و معالجتها ..)[82] فلو أخذنا على سبيل المثال قارئا يواجه نصا دينيا وليكن حديثا قدسيا ، فالمفترض أن هذا القارئ لابد أن يكون له اطلاع سابق على القرآن الكريم خصوصا , و على مجموعة من النصوص النبوية عموما , هذا بالاضافة إلى اطلاعه على الخطوط العريضة للسيرة النبوية و مصنفات متنوعة في علوم الدين من فقه و عقيدة و أخلاق ... أضف إلى كل هذا ما تراكم لدى المتلقي من معلومات مختلفة متعلقة بقضايا الحديث النبوي .. مما يجعل الدارس يعتقد أن القارئ الذي تجمع لديه هذا الزخم الهائل من المعطيات و المعلومات , لا يواجه النص المعني/الحديث القدسي و هذه المعلومات غائبة عن ذاكرته , و إنما يفعل ذلك و هي ماثلة في ذهنه من حيث يشعر أو لا يشعر . على الرغم من أن (النص المواجه قد لا يحتاج إلى استحضار كل هذه المعلومات)[83] و المعطيات حتى يكون قابلا للاختراق و المقاربة . و في الوقت نفسه (يبرر اختلاف القراءات إلى الدرجة التي يرى فيها الكثير أن النص المفتوح و قابل إلى ما لا نهاية له من القراءات و الافهام .. و إليه يعود السبب فيما يطرح أحيانا من تساؤل حول ما إذا كان للنص معنى مقصود كشيء في ذاته أم لا ؟ ..)[84] , فهذه النسبية تشي بأن القارئ (واقع لا محالة تحت تأثير الذهن البشري و اعتباراته القبلية)[85] بكل ما تحمله هذه الأخيرة من مبادئ ثابتة و قواعد منضبطة و موضوعية أو غير منضبطة و ذاتية مختلف حولها ... فـ(الفكر البشري عن وعي أو غير وعي يعمل طبقا لهذه القبليات)[86] .

و لهذا فإن لكل وجه من وجهي التلقي الواعي انعكاسا على واقع الإنسان و حياته , فإذا كان الوعي القرائي يشبه عدسة تنقل بتواصل صور العالم الخارجي , فإنها حينئذ لا تنقل إلا صورا محدودة , و تبقى حقيقة العالم الواسعة محجوبة , فلا يأخذ الإنسان إلا الجزء الذي تناله حواسه , و معه ذلك الجزء الذي يركبه بواسطة عملياته العقلية , فـ(الفكر .. إذ يعكس الواقع حتى في أدنى درجات استقلاله النسبي لا يعكسه كما تفعل المرآة التي يرى فيها الشخص وجهه بكل قسماته و تجاعيده , بل غالبا ما تكون الصورة المنعكسة متموجة متداخلة الأجزاء كالصورة التي تعكسها المرآة المهشمة , الأمر الذي يجعل الربط الميكانيكي بين أجزاء الواقع الفعلي و الصورة التي يعكسها الفكر عنه عملية مضللة , و النتائج التي يترتب عنها نتائج فاسدة ..)[87] .

و بعبارة أخرى فإن العلاقة الرابطة بين المعرفة القبلية و عملية التلقي ستضمن جانبا إيجابيا غاية في الأهمية , لأنه النافذة التي يتعرف الإنسان من خلالها على وقائع موضوعية و حقائق خارجية تتعدى ذاته الفردية , و هناك جانب سلبي , لأن هذه النافذة محدودة و عاجزة عن نقل الواقع الخارجي بموضوعية تامة , مما يقود إلى تأويلات خاطئة في أحيان كثيرة , كل ذلك لا يمكن تخطيه إلا (عبر قنطرة القبليات , فلولا هذه القبليات لكانت المسافة قائمة و البعد قائما من غير اجتياز)[88] ما بين القارئ و الخطاب/النص .

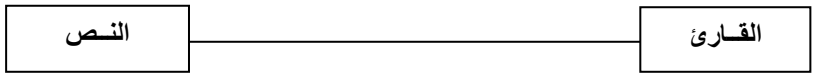

المسـافة/المجـال

ففعل التلقي – إذا – سيقف وراء بقاء الانسان و يحفظ نوعه و يشكل حاضره و مستقبله بل حضارته , لكنه من جهة أخرى يساهم في خلق أنواع من الصعوبات و الاشكالات باعتبارها (منظومة من العلاقات التي تنسجها , داخل فكر معين , مشاكل عديدة مترابطة لا تتوافر امكانية حلها منفردة و لا تقبل الحل , من الناحية النظرية , إلا في إطار حل عام يشملها جميعا)[89] , و كذا الاحتراب و اضطهاد بعض بني الانسان لبعضهم الآخر , بل و في بعض الأحيان يقف وراء حالات التخلف و التردي المترتبة على محدودية الوعي و تخالف الرؤى و الأفهام .

لقد انتهت الكثير من الدراسات المعرفية الحديثة مثل (علم النفس المعرفي) و (الذكاء الاصطناعي) و غيرهما إلى تقديم (نظريات و مفاهيم تجعل المبدع و المحلل خاضعين لنفس العمليات الذهنية التي تحكمهما معا . و تلك النظريات و المفاهيم هي : نظرية الأطر و المدونات , و الخطاطات , و السيناريوهات , و النماذج الذهنية ...)[90] , فهذه الآليات لا شك أن لها تحكما في كل من الكاتب و المتلقي معا , مما يدعو الدارس إلى نفي ما يسمى مفهوم (القراءة البريئة) , فالقارئ , أيا كانت سويته المعرفية , يمتلك تكوينا معرفيا و معتقديا على درجة قريبة من الاكتمال في لحظة ممارسة فعل القراءة , من الطبيعي أن الاكتمال في معناه الدقيق لا يتم إلا بالموت , فالانسان من الناحية المعرفية على الأقل , يظل مشروعا مفتوحا قابلا للتغير إلى آخر العمر , و لكن هذا المشروع المفتوح تنتابه انغلاقات شتى يمكن تشبيه آليات حدوثها بآليات اغلاق كتاب اثر الانتهاء من قراءته . المهم أن القارئ لا يمكن أن يواجه ما يقرأ بشكل معرى من أية نظرة مسبقة , أو أي سلاح معرفي فـ(عملية الابداع , و عمليات الانتاج و اعادة الانتاج و الهدم و البناء , تنطلق من شيء ما , أي من نواة أو من رحم أو ما أشبه مثل هذه المفاهيم)[91] , و لهذا فالمتلقي يمتلك آلياته المتعددة للفهم و التأويل , و هي آليات ناجمة بطبيعة الحال عن قراءات سابقة , و يمكن – أو لا بد من – أن تتدخل القراءة الجديدة في تطويرها أو تغييرها , و لكن هذه القراءات السابقة تتدخل تدخلا مباشرا في رسم مساري الفهم و التأويل , عند مباشرة أي قراءة جديدة , و تتداخل طبيعة التكوين المعرفي للقارئ مع الموقع المعتقدي أو الأيديولوجي الذي يلتزمه , و من الطبيعي أيضا أن يتأثر مسار التأويل بالموقع الذي يتخذه المؤول تأثرا مباشرا .

و الناقد بوصفه قارئا متمتعا بخبرة خاصة بالقراءة ، و بوصفه منتج نص مشتغلا على نص آخر ، حتى لو كان نصا متعاليا في أحيان كثيرة ،يخضع مسار تأويله لمواقفه المتكونة قبل مواجهته للنصوص اللاحقة خضوعا جليا في معظم الأحيان . الحالة المثلى أن يستطيع النص فرض طرق تأويله على قارئه، أيا كان القارئ ، و أيا كان النص . و تقتضي الحالة المثلى للناقد أيضا أن يلتزم الموضوعية القصوى لدى تصديه لأي نص يقرؤه .و على رغم ذلك كله نجد شواهد عديدة في تاريخ الثقافة العربية و غير العربية ، تشير بوضوح إلى أي مدى لعبت النظرة المسبقة للنص – و لمؤلف النص أحيانا- دورها في جعل الرسالة اللغوية تصادف عند بثها (أكثر من متقبل واحد فيفككها كل حسب أنماط جداوله اللغوية ، فتتعدد القراءة آنيا للرسالة الواحدة حسب تعدد المتلقين ، فكذلك تتعدد القراءة زمانيا بتعاقب المتلقين و المفككين لبنائها على محور الزمن و التاريخ)[92] ، كما جعلت الفعل التأويلي في بعض الأحيان يلتزم مسارا مناسبا لمصلحة من يمارس عملية التأويل ....

<u>المعرفة الخلفية و تماسك الخطاب/النص</u>

يتأثر الخطاب/ النص ،في تكوينه و تناسقه و استمراره ، -إلى حد بعيد-بسلطة المعرفة الخلفية الكامنة لدى المتلقي ، فهو أولا الذي يعطي للملفوظات (المعاني و الدلالات بعد قراءته للنص و ربط العناصر البائية ضمن علاقات جدلية تحيل إلى ما هو خارجها و الكشف عن دلالات في عمليتي التفكيك و التركيب)[93] ، و ثانيا ، لأن عملية التكون المعرفي و بناء المعرفة الخلفية سواء أكان ذلك على المستوى الفردي أو الاجتماعي إنما هي أساسا عملية ديناميكية متواصلة لا تعرف التوقف ، تلاحق هدف الإنسان الرئيس ، و سعيه لإغناء الحياة و ترسيخها ، ذلك الهدف الذي لا ينجز إلا عبر

تواصل عملية التلقي الواعي ، و تعميقها ، غير أن هذه الفاعلية الإيجابية التي يمارسها الإنسان ستتأثر بأدوات تكوينها ، تلك الأدوات التي تمثل النافذة التي يطل منها المتلقي /القارئ على العالم الخارجي بكل تجلياته ، فتجعل من تلقيه للخطاب/ النص و تفعيل تماسكه لا ينحصر في (فهم الكلمات المستخدمة فحس ، و إنما المشاركة في تبادل الفكر المتجسد في المادة المقروءة)[94] ؛و لذا فإن هذا الفعل المقارباتي سيكون ذا أثر مزدوج ؛ فه من جهة عملية تعرف و ادراك لعالم الخطاب ، لكنه من جهة أخرى عملية محددة بأطر وحدود القائم بها هو المتلقي؛ فهنالك ،ذا أثران : أثر إيجابي يترتب على المتلقي الواعي نفسه ، كونه عملية إدراك و تعرف على العالم ، و أثر آخر سلبي ينشأ عن محدودية أدوات الإدراك و نسبية المعطيات المعرفية .

و لهذا فإن لكل وجه من وجهي التلقي الواعي انعكاسا على واقع القراءة و حياتها و على المقروء و تماسكه الداخلي و الخارجي ، فإذا كان الوعي القارئي يشبه عدسة تنقل في تواصل صور العالم الخارجي ، فإنها حينئذ لا تنقل إلا صورا محدودة ، و تبقى حقيقة العالم الواسعة محجوبة ؛ فلا يأخذ الإنسان إلا الجزء الذي تناله حواسه ، و معه ذلك الجزء الذي يركبه بواسطة عملياته العقلية ، مما يفسح المجال واسعا لتعدد القراءة و تنوع جماليات الانسجام النصي .

و بعبارة أخرى فإن عملية التفاعل بين النص و تماسكه و المتلقي و قراءاته ستضمن جانبا إيجابيا غاية في الأهمية ؛ لأنه النافذة التي يتعرف من خلالها على أشياء تتعدى الذات الفردية و اللحظة الزمنية ، و مع ذلك هناك جانب سلبي ، لأن هذه النافذة محدودة و عاجزة عن نقل كينونة الخطاب /النص مطلقا و بموضوعية تامة ؛ مما يقود إلى تأويلات خاطئة في أحيان كثيرة .

فثنائية التماسك النصي و فاعلية المعرفة الخلفية لدى المتلقي المستمدة من مرجعات متنوعة تحكمها قراءة نوعية كتلك التي يراها محمود محمد شاكر في قوله (قراءة متأنية طويلة الأنات عند كل لفظ و معنى ، كأني أقلبها بعقلي ، و أروزهما (أي: أزنهما مختبرا) بقلبي ، و أجسهما جسا ببصري وبصيرتي ، و كأني أريد أن أتحسسهما بيدي ، و أستنشي (أي : أشم) ما يفوح منهما بأنفي ، و أسمع دبيب الحيلة الخفي فيهما بأذني ، ثم أتذوقهما بعقلي و قلبي و بصيرتي و أناملي و أنفي و سمعي و لساني ، كأني أطلب فيهما خبيئا قد أخفاه)[95] ، كل ذلك يشي بأ، القراءة- إذا –تصنع المعرفة الخلفية و تشحذ آلياته ، و تقف وراء هذا المتلقي في جهوزية حضارية ، تحفظ نوعه و تشكل حاضره و مستقبله بل حضارته ، لكنها من جهة أخرى تساهم في خلق أنواع من التحديات و الإشكالات قبالة بعض القراءات المؤدلجة أو تلك التي لا تنضبط بالمنهج العلمي و لا تؤمن حتى بالمتغيرات العصرية الناتجة عن حالات التخلف و التردي و محدودية الوعي و سلبية المعرفة الخلفية من الرؤى و الأفهام .

خاتمــة

ما تقدم ذكره قد يجعل الدارس يقف قبالة جملة من النتائج البحثية منها : أن المعرفة الخلفية بنية تخطيطية تجريدية معقدة و مصفوفة متشابكة العناصر التكوينية - منغلقة ومنفتحة في آن - , حاضرة في سيرورة الحياة الفكرية و الثقافية بكل أبعادها , قد تمر بمرحلة كمون مؤقت , تنتظر فيه شروط تفاعلات و تراكمات معطيات ذاتية و موضوعية قد تمكنها من احتواء العناصر المحايثة لها , بما يتح لها امكانية اقتراه مسار خاص و مؤسس , بل هي - زيادة على ذلك - قيمة مضافة باعتبارها معطى استراتيجي في الفعل التواصلي على اختلاف أشكاله و أنماطه و مستوياته و مقاصده .. , انطلاقا من كلية خواصها التكوينية لحظة تفاعل عناصرها المؤسسة بعضها بعضا في فضاء تداولي , مما يفسح الطريق واضحا مذللا بين يدي المتلقي حتى يلج هو نفسه في شبكة علائقية تواصلية , تمكنه من أن يكون حاضرا عضويا و طرفا أساسيا في تغذية إنتاجية الخطاب و استهلاكه فهما و تفكيكا و إعادة إنتاج , كل ذلك في دورة تواصلية طبيعية و فاعلة ....

المراجع:

1-منذر عياشي : الأسلوبية وتحليل الخطاب ،مركز الإنماء الحضاري ، ط1 : 2002م ،ص: .139
2-محمد خطابي :لسانيات النص ،مدخل الى انسجام الخطاب ،المركز الثقافي العربي،ط2 : 2006م ،ص:.61
3-المرجع نفسه ،ص:.61
4-طه جابر العلواني ومجموعة من المفكرين :بناء المفاهيم ودراسة معرفية ونماذج تطبيقية ،المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ج1، ط1 : 2008م ،ص:.187
5-إبراهيم مصطفى إبراهيم : الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، ص:.91
6-جميس جينز :الفيزياء والفلسفة ، دار المعارف ، ص:.60
7- عبد العزيز العيادي : ميشال فوكو المعرفة والسلطة ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت- ، ط1: 1994م ،ص:.7
8-توماس كون : بنية الثورات العلمية ، ترجمة شوقي جلال ، عالم المعرفة ، العدد: 168، الصادر في يناير : 1978م ، صك.240
9- عبد العزيز العيادي: ميشال فوكو المعرفة والسلطة ، ص:.07
10-تمام حسان :اجتهادات لغوية ، عالم الكتب ، ط1 :2007م ،ص: .370
11-سورة المائدة ،الآية :.83
12- سورة النمل ،الآية :83.
13- سورة التحريم ،الآية :.03
14- سورة التوبة ،الآية :.102
15-عبد الرحمان بن زايد الزنيدي :مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي ، مكتبة المؤيد ،ط1: 1992م ، ص: .39
16- علي بن محمد بن علي الجرجاني : كتاب التعريفات ، دار المعرفة ، ط1: 2007م ،ص: .200
17-ابن فارس: مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، ج4 ، ص: .281
18 – المعجم الوجيز : مجمع اللغة العربية , جمهورية مصر العربية , ط1 : 1980 , ص : 415 .
19 – ابن منظور : لسان العرب , دار إحياء التراث العربي , بيروت – لبنان , ط3 : 1999 م , ص : 153 .
20 – جميل صليبا : المعجم الفلسفي , دار الكتاب اللبناني , ج2 , ص : 392 .
21 – الزبيدي : تاج العروس , تحقيق : مصطفى حجازي , مطبعة حكومة الكويت , ج 24 , ص : 133 .
22 - جميل صليبا : المعجم الفلسفي ,ج 2 , ص : 394 .
23 – المعجم الفلسفي : مجمع اللغة العربية لجمهورية مصر العربية , الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية – 1983 م , ص : 186 – 187 .
24 – السيد محمد الحسيني البهشتي : المعرفة في نظر القرآن , ترجمة : علي الهاشمي , دار الهدى , بيروت – لبنان , ط1 : 2002 م , ص : 56 .
25 – المرجع نفسه , ص : 57 .
26 - جميل صليبا : المعجم الفلسفي ,ج 2 , ص : 392 .
27 - المرجع نفسه , ج 2 , ص : 392 .
28 – نادر كاظم : المقامات و التلقي , المؤسسة العربية للدراسات و النشر , ط1 : 2003 م , ص : 64 .

29 – طه جابر العلواني و مجموعة من المفكرين : بناء المفاهيم دراسة معرفية و نماذج تطبيقية , ص : 188
30 – محمد عابد الجابري : نحن و التراث , مركز دراسات الوحدة العربية , ط1 : 2006 م , ص : 25
31 – يحي محمد : منطق فهم النص , أفريقيا الشرق , ص : 76 .
32 – المرجع نفسه , ص : 77 .
33 - المرجع نفسه , ص : 114 .
34 – نعوم تشومسكي : اللغة و مشكلات المعرفة , ترجمة : حمزة بن قبلان المزيني , الدار البيضاء , دار توبقال , ط1 : 1990 م , ص : 204 .
35 – ميشال فوكو : حفريات المعرفة , ترجمة : سالم يفوت , المركز الثقافي العربي , ط1 : 1987 م , ص : 53 .
36 – المرجع نفسه , ص : 118 .
37 – يحي محمد : منطق فهم النص , ص : 80 .
38 – المرجع نفسه , ص : 14 .
39 - المرجع نفسه , ص : 77 .
40 - نعوم تشومسكي : اللغة و مشكلات المعرفة , ص : 118 .
41 - يحي محمد : منطق فهم النص , ص : 76 .
42 – المرجع نفسه , ص : 76 .
43 – المرجع نفسه , ص :100
44 – المرجع نفسه , ص :100
45 – المرجع نفسه , ص :100
46 – المرجع نفسه , ص :100
47 – المرجع نفسه , ص :76
48 – المرجع نفسه , ص :109
49 – المرجع نفسه , ص :108
50 – المرجع نفسه , ص :109
51 – المرجع نفسه , ص :76
52 – المرجع نفسه , ص :113
53 – المرجع نفسه , ص :113
54 – المرجع نفسه , ص :114
55 – المرجع نفسه , ص :116
56 – المرجع نفسه , ص :115
57 – المرجع نفسه , ص :116
58 – محمد خطابي : لسانيات النص , مدخل على انسجام الخطاب , ص : 62 .
59 - المرجع نفسه , ص : 62 .
60 – محمد عابد الجابري : في غمار السياسة , فكر و ممارسة , الكتاب الأول , الشبكة العربية للأبحاث و النشر , ط1: 2009 م , ص : 24 .
61 - المرجع نفسه , ص : 25 .
62 – عماد هرملاني : العلم و الايديولوجيا دراسة في اشكالية منهج البحث العلمي , منشورات دارمعد للطباعة و النشر , سوريا - دمشق , 1995 م , , , ص : 03 .
63 – محمد مفتاح : النص من القراءة إلى التنظير , شركة النشر و التوزيع - المدارس - الدار البيضاء , ط1: 2000 م , ص : 33 .

64 - المرجع نفسه , ص :33 – 34 .
65 - المرجع نفسه , ص :09 .
66 – عبد السلام المسدي : اللسانيات و أسسها المعرفية , الدار التونسية للنشر , ص : 25 .
67 - عبد السلام المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات , دار الكتاب الجديد المتحدة , ط1 : 2010 م , ص : 12 .
68 - عبد السلام المسدي : 15 .
69 – الزواوي بغورة : الفلسفة و اللغة , نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة , دار الطليعة - بيروت , ط1 : 2005 م , ص : 219 .

70 - المرجع نفسه , ص : -محمد محمد قاسم: كارسل بوبر ، نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي ،دار المعرفة الجامعية ، ص: .273
72- محمد مفتاح : النص ، من القراءة إلى التنظير ، ص:.27
73- يورقن هابرماس :المعرفة والمصلحة ،ترجمة حسن صقر ، منشورات الجمل ، ط1 : 2001م ، ص: .364
74- المرجع نفسه، ص: 374 .
75-محمد مفتاح : النص ، من القراءة إلى التنظير، ص: .28
76- عبد السلام المسدي: مباحث تأسيسية في اللسانيات،ص : .12
77- المرجع نفسه ن ص :.09
78- المرجع نفسه ن ص :.09
79- يحي محمد : منطق فهم النص ،ص: 105-.106
80- مايكل كاريذس : لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة ؟ ، ترجمة : شوقي جلال ن عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت 339 (1998م) ، ص: .39
81- محمد خطابي : لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص: .61
82- المرجع نفسه ن ص :.61
83- المرجع نفسه ن ص :.61
84- يحي محمد : منطق فهم الدرس ،ص:.75
85- المرجع نفسه ن ص :.76
86- المرجع نفسه ن ص :.77
87-محمد عابد الجابري : إشكاليات الفكر المعاصر ، مركز الدراسات الوحدة العربية ، ط2 : 1999م ، ص: 14.
88- يحي محمد : منطق فهم الدرس ،ص:.80
89- محمد عابد الجابري : نحن و التراث ، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي ، مركز دراسات الوحدة العربية ،ط3 :1999م ، ص: .39
90- محمد مفتاح : النص ، من القراءة إلى التنظير، ص: 23-.24
91- محمد مفتاح : النص ، من القراءة إلى التنظير، ص: .26
92- عبد السلام المسدي : مباحث تأسيسية في اللسانيات ، ص: .20
93- إبراهيم رماني : الغموض في الشعر العربي الحديث ، دار هومة للنشر ، الجزائر ،(د.ط) ، ص: 233.
94- سعيد حسن بحري : علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات ، مكتبة لبنان ناشرون ، ط1 1997م ، ص: .162
95- محمود محمد شاكر : المتنبي رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، دار المدن ي جدة ، 1987م ، ص: 06.